بـــــرد محتمل

قصص

إبراهيم صالح

لوحة الغلاف للفنان :

د/ حازم فتح الله .

بوسطة

أخى الحبيب ــ أبعث أشواقى اليك ــ متى أراك ؟

أمك تداوم على السؤال .

الليل يسهد مضجعى و دقات المنبه الرتيبة تدق فى أعماقى ، تلــك الأميره النائمة فى قلب اللوحة تداعبها غزالة برية على جدول ماء عذب ، ألا ما أروع الخيال !

هل تريد شيئاً ؟

الحياة هنا غاية فى الصعوبة ، أرى العامة يتبولون دماءاً وعـــدداً كبيراً يمدون أيديهم بالسؤال وعيون المسنين زجاجية ميتة .

أقول لها أمي سوف أراسله ولا شئ يدفعنى ، لماذا أبعـــث إليــه؟ مرارة فى قلمى وقهر فى نفسى ...... يا أخى إخوتك جميعاً يبعثون بالسلام .

وأنا ....

لا أستطيع بعث السلام ، ماذا أقول له ؟

ضوء الأباجورة واضح وأستطيع أن أتمم الكلمات .

.... خطاب ثقيل !

" لا تتأخر تانى مفهوم !! .... دى مش طابونة ! "

لا يتأخر عن عمله ومع ذلك يوبخه عند أول توان ولا يفعل مع بعضهم !......... وغد !!

يا أخى لا تأتى .... فالأمور هنا ليست على ما يرام وزوجتك بخير وأولادك لا ينقصهم ....

من قال ؟ كلهم ينقصهم شئ .... أشياء .

ولكنه بعيد عن الجحيم .

من قال أنه لا يريد أن يعيش فيه ، ليس من حقى إصدار أحكام مطلقة .

قالت أمى : إبعث له بسلامى

خائفة أن لا تراه مرة أخرى !

الغزالة البرية والعذراء الفاتنة يلهوان ببراءه ،ما أحوجنى اليها!

لكنك يجب أن تأتى ، يا أخى سوف تفرح زوجتك ويقبلك الأولاد ......

حاشية " جارك قام بكسر حاجز فى جدار شقتك وقمنا بالإبلاغ عنه ، وجهة العمل أنذرتك بالفصل إن لم تعد ، وهيئة التأمينات وصندوق التكافل أرسلا يطلبان مستحقاتهما ...... الخ "

أليس من الظلم أن تأتى لتغرق فى كل هذه التفاهات ولكنك ســـوف تأتى .... أنا واثق ، فأمك تريد !

وهى تبعث لك بالسلام .هل تذكرها ؟ بكت لغربتك كثيراً .

جارتك الجميلة التى شغلت بها لم أعد أراها ، هل حدث لها خطـــب ما ؟ أم تزوجها أحدهم ممن يستطيعون الباءة ، أما أنا فلا أســتطيع .... الصوم لم يعد يصرفنى يا أخى فماذا أفعل ؟

هل تأتى ؟ .... أسمعك تقولها بصوت عال .

تقول : لن تأتى .

وتتركنى وأمك نتخبط فى رجوعك من عدمه .

كلا يا أخى ، يجب أن تأتى وتنظر بنفسك وترقبنى بينمـــا أنســحق تحت وطأة الوظيفة الميرى وعجز دخلها عن ملاحقة مطالبى .

أخى ، قاربك هل وصل بر الأمان ، يجب أن يصل فالأعاصير تــهب وتذهب كل شئ .

عجوز ذو عيون زجاجية ميتة أراه دوماً يطاردنى فى الطريق العـلم ومن نافذة العمل وفى المواصلات العامة يجلس بجانبى ، يمد لى يده يتسول ، يستعطفنى ولا أرى دموعه من خلف الزجاج

السميك. ولا أملك يا أخى المساعدة .

قروشى المعدودة عاجزة حتى عن أن تمسح دموعى .

يا أخى يطاردنى فى كل مكان وفى كل وقت .

لاأعرف ماذا أفعل .... هل أنتحر ؟

سألت أمى ذات يوم .... ألا من ترفيه ؟

وهى لاتعرف ، تجاوبنى بالصمت .

أخى ...... هل من ترفيه عندك فى بلاد النفط ؟

أسمعك تقول " العمل هنا ذو عائد مرتفع "

وعندى ياأخى تذهب سنون عمرى وينصرم شبابى بلا عائد .

زوجتك بخير يا أخى فلا تقلق .

وأولادك أيضاً .

هل تريد شيئاً ؟

أريد أشياءاً كثيرة .

سوف أقضى لك بها فى ليال أخرى ......من يدرى ؟

والسلام ختام .

نـوفـمبـر ايـها الشهر الحزيـن

سوف يصير هذا الشتاء صعباً ، يشعر بذلك من خريفه القاســـى ، العنيف .

حينما كان الصيف قائظاً ظل يردد " أين الشتاء "

الشتاء قد أتى ، أنواء وبرودة فى الجو ثم صقيـــع ســـوف يجمـــد الأطراف المكشوفة .

أخوه ظل يحذره فى التليفون " لا تتعرض للبرودة الشديدة حتـــى لا تتجمد أطرافك وتلتهب أصابعك " ، ورثا هذه العلة سوياً .

من أين له بجوانتى لا يجعل منظره كملاكمى الحلبة ؟

شيئ ما بداخله يحذره من قسوة الشتاء هذا العام ، هـــل يتحملـــه ويمر عليه بسلام ، مر عليه أربعون شتاءاً كاملة هى كل عمـــره ، لن يعيش مثلها أبداً

صراخ بداخله يهزه دوماً حينما يتدثر بالأغطية ويستكين فى فراشه ، أيها العديم القيمة ، من ذا يكترث بك ؟ ، أخوك تـــزوج وأنجـــب وأصبحت له عائلته الخاصة . أبوك وأمك إرتاحا منذ أمد بعيد .

شيئان صار يهاب منهما صقيع الشتاء حين يجمد الأطراف ويجـبره على البقاء فى الفراش وقيظ الصيف حينما يلوذ منه

بجـــدران الغرف دون فائدة .

حينما كان فى الثلاثين ماكان يحمل لكل هذا هماً ، وفى العشـــــرين ماكانت أشد لهفته ليخوض غمار شتاءات باردة ويتلظـــى بجحيـــم أصياف مستعرة .

كان والداه بجواره وأخوه لم يتزوج بعد .

الأن يستوحش من كل شئ حتى من ربيع العام نفسه ، منـــذ عـــدة أعوام لا يعرف عددها ، ظهرت له أنثى تخيل أنـــها التـــى ســـوف يحصل منها على الولد ويكون معها بيت دافئ .

ولكن لسبب ما تبعثرت كل الأمال هباء وتبددت كل الأحلام ، دائمـــاً ما تتبدد كل توقعاته وتصير لا شئ !

شائهة هذه الأفكار التى تمجد فى حياة العزوبية،لا معنى لها أبـــداً ،من يره الأن وهو يرقب تقلبات الفصول ويحصى ظـــــــواهرها يدرك .

تترك هذه التقلبات فى نفسه أثراً عنيفاً .

بات يخشى أن ما عاد يحتمل .

هل صار بنيانه ضعيفاً أم أصبحت وحدته قاسية أم صارت تقلبات

الفصول أعنف مما كانت فى أيام شبابه .

• •

فى الأمس طرقت بابه خادمه فى الثلاثين ، شعر بحنين جارف إليها ، جاءت تنظف البيت ، فليبق متسخاً على حاله وتنضح عنه هو كل هذا الشجن ، لن يضيره من إتساخ البيت شئ .

" نوفمبر أيها الشهر الحزين ، لن يضيرنى إذا ما بقيت الى الأبد ولكنك تذهب سريعاً ويذهب معك كل سكون الشتاء الأول ويستعد الجميع لإستقبال العواصف والأنواء التى لا ترحم " .

بالأمس ذهب ليشترى صحيفة المساء والقليل من طعام يسد به غائلة جوع الليل ثم توجه الى البيت .

إكتشف أن الخادمة لم تنظف كل شئ ، لا زالت هناك جوارب وملابس داخلية لم يتم غسلها ، لازالت غارقة فى أوساخها حتى تتناولها يده بالتنظيف .

اليوم رغم غسيله تلك القطع وإنتظام كل الأشياء فى مكانها الصحيح يشعر بأن هناك شيئاً غير كامل ، يلمسه ويشعر به .

يدور ، يعبث فى الأركان يبحث عنه ، فى نهاية الأمريجلس منهكاً

، راسخ الإعتقاد أنه لا يوجد شئ محدد .
اليوم هو الثانى عشر من نوفمبر .
لا يزال يؤمن بأنه سوف يحيا هذا الشتاء أيضاً مثلما عاش كل الشتاءات الماضية .

• • •

فى أحد المحلات ، وجد البائع ينظره ملياً ، ظنه يتعرف عليه ، إكتشف أنه ينظر لما خلف أكتافه ، ماذا سيكون سوى إمرآه !
خلبت لبه على الفور فصوب لها النظرة تلو الأخرى .
لم تكن فتاة يافعة أو عروساً نضرة ، ترتدى جلباباً أسود باهت ، وجهها رغم بهتان الثوب ينضر بأنوثة فجة .
تناول حاجياته ومضى ، سخر من ضعفه .
بينه وبين نفسه ود لو يكون ذلك الضعيف الجرئ !
من يكون .... لا أحد .
" باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس "
أين أنت يا سليمان الحكيم ؟

إستحوذ أبوه داود على زوجة أحد الجنود ثم أرسله الى حتفه ليخلو له الجو ولكن ......

ليته ما فعل ، قالها فى مزاميره التى تفيض بالشجن .

هل يعيش ناسكاً طيلة هذا الشتاء أيضاً !

إنه الشتاء الأربعون الذى يمر بحياته .

حين راح على بابا الى مغارة اللصوص فى الجبال قال فى هدوء " أفتح ياسمسم " وفتح له سمسم .

أعطاه المال وحقق له الأحلام .

هل يفتح له سمسم القرن العشرين ويمنحه إمرأة ، فقط إمرأة ! على أن تكون فاتنة ، ورقيقة .

هذا هو كل ما يرجوه ،حينما جاءه الخريف الماضى كان منقبضاً ثم تلاشى كل ضيقه وحزنه فى خلال فصل الشتاء .

أرغم على البقاء فى البيت وأبعد عن وجوه عديدة كرهها وأخرى أحبها ، حبسه مع أفكاره وأوهام وتخيلات .

وحينما مرت الأيام وإنقضت كان قد أصبح شبه معافى وشبه سقيم ولا يدرى أيهما كان أقرب إليه فى الحقيقة .

اليوم والخريف تتهدج صورتة من حوله يشعر بنفس هذا الأنقباض ويلمس كل ذلك الضيق الذى هاجمه العام المنصرم .

هل يحتمل ذلك مرة اخرى ؟

أشار علية عديدون بزيارة بيوت الهوى ولكنة يخاف .

رغم اعوامه الأربعين يخاف ! ويخشى من هذه الخطوة ، ربمـــا يفعلها يوماً ، لا يدرى متى ...... !

حينما يتم هذه الصحيـــفة السقـــيمة التى فى يـــده يكـــون الـــيوم الحادى والعشرون من شهر نوفمبر قد مضى .

ومضت معه عشرة أيام كاملة منذ قرأ أخر صحيفة مساءاشـتراها .

لا يذكر حقاً مافعله فى العشرة الأيام الماضية فلا شئ ذو أهميـــة يتذكره .

سوف يسحب الغطاء فوق جسده النحيل ويطفئ أنوار البيت ويروح فى سبات ليمضى الوقت مثلما يمضى عادة .

• • • •

أراد أن يكون مهماً ، يحارب فى إحدى المعارك ، يبدع ، يبتكـــر ، ما أراد أن يصبح وزيراً أو مديراً كبيراً .

ما كان للسلطة بريق أبداً فى عينيه ، حرمته الظروف من كل ما تمنى .

يروق له أحياناً أن يمسك بسلاح ويصوب فوهته الى رأسه الجوفاء ويفجر أجزاءها ، لا يستحق سوى هذا !

ولكن .... !

هذه الكلمة دوماً عقبة فى طريقه ، ماذا يحدث بعدكلمة ولكن ....

لماذا لا يموت بدون وقفة أو تساؤل تثيره الذات ، حينما يموت لن يكون لتلك الذات أى وجود أو أية إعتراضات !

ولكنها الأن موجودة ، تناقشه وتطرحه أرضاً أحياناً كثيرة وتهدم ثقته أوقات لا حصر لها .

ماذا لوكان قد إستسلم لأمه ، رغبت فى تزويجه من إحدى العاملات بالمصنع المجاور ، كانت حياته ستختلف .

كان المصنع منذ عشر سنوات مزدحماً بالفتيات الجميلات ، أرفعهن حظاً فى التعليم لم تحصل إلا على المرحلة الاعدادية !

ما فائدة أى شهادة فى هذه الدنيا ..؟! !

" باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح "

أمه ترقد الأن فى قلب الثرى ولا تدرى بمدى عذابه وربما تـــدرى ولكنها لا تملك شيئاً .

المصنع الأن خاو ، مقفل ، تضرب الريح فى أجنابـــه المـــهجورة وتهز نوافذه ومصاريع أبوابه فيصدر نعيب منها يصل مسامعه ويثير بداخله التشاؤم . على غلاف مجلة تطـــل ممثلـــة فرنســية مشهورة تبتسم فى إغراء وتبرق عينيها فى غموض ، يطل ، ينظر ، لا يملك إلا أن ينظر .

يقلب الصفحات وراء الصفحات ولكنه دوماً يرجع الىهذه الصورة.

فى الصباح الباكر سوف يغادر إلى عمله اليومى ، يملأ الملفــــات بالأوراق ، ينظم السجلات ، يحصى الأرقام والتحليليات ويناقشـــــه الزملاء الجدد ويهابه الرفاق المحدثون وتقع على نافوخه أوامــــر رؤسائه وتعليماتهم . كل شئ بلا فائدة ، كل شئ إلى باطل ، يـدون الملحوظة فى مذكراته.أن اليوم هو الثامن والعشرون مــــن شـــهر نوفمبر والخريف أوشك على الإنتهاء من مهمته فحين يهجع إلـــى البيت الأن لا يشعر بأى هدوء بل تعصف به زعابيب أشد وأفظـــع من زعابيب الشتاء .

المسافر

حينما أوغل فى الطريق وتكتنفنى الرياح ويحاصرنى صوت الموج وألمح شذرات الماء الأبيض وهى تتقلب وتفور على الرمال ، حينها أرى جبالاً من جهنم تأتينى وتفتح قلوبها المتوهجة فتردينى. وهذى الجبال تسير أمام عينى فوق أقدام عملاقه ، أرقبها وأنا ذاهل ولكنى ألمح البحر يطويها ويغوص بها فى أعماقه .

والعربة مارقة تنهب الطريق نهباً ، وأسرح أوغل فى خيالى وأوهامى فتنقلب السماء حيناً وتقترب منها الكواكب العملاقة حيناً أخر و يوم القيامة فى ناظرى مريع ، صاعق ، يثير هلعى !

البشر يهرولون عراياً لا يستر عوراتهم شيئاً ، وتشققات الأرض الرهيبة تبلعهم كالدود وهم يروحون بلا مقاومة فى بئرها السحيقة وتلفت بجوارى ، رأيت شريط الساحل يبتعد عن الطريق حتى يصير ممراً صغيراً ، والقيامة فى داخلى تتلاشى وتضمحل ، كاسيت السيارة بدأ يعمل .

قال لى الذى بجوارى ! يالها من أغانى هابطة !!

ورددت ! أن نعم .

وفى خاطرى قلت : ماذا يهم من أى شئ !!

والركاب تدحرجوا الى النعاس يتخطفهم وأنا خلــدت أفكــر ، هــل تنقلب بنا السيارة ونصير أمواتاً فى غمضة عين وإن لم يحدث هذا فسوف نعيش عشرة أو عشرين عاماً ونموت ....

وقالو لى : قيامة الرجل حين مماته

وأنا قيامتى أمام عينى ماثلة أراها ولا تروح من خيالى .

هل أظل أتعذب الى الأبد بلا رحمة ، هــل تــدوى صرخــاتى فــى الفضاء بلا نهاية .

لمحت الكثبان الرملية تختفى وتتلاشى فى سرعة رهيبة والعربــة ترتفع عن الأرض وتطير ، السائق جن جنونه أمام الطريق الخــالى ، وأنا قلبى ينتفض .

قلت له : هدئ السرعة قليلاً

قال : لا خطر منها ، أطمئن !

وتلاشت صورة الجبال وأنمحت آخيلة الموج المزبــد وبــانت لــى صورة النجوم والقرى التى نعبرها .

قالوا : أدم عاش ألف عام

ومن قال : بل عاش عشرة آلاف عام

ومن قال : بل خمسمائة عام

كل هذا قطرة من عمر الزمن !!

حينما سألونى أين تريد عملك ، قلت لهم : فى الأطراف النائية من الصحراء ، بعيداً عن اليابسة الصاخبة ، ذهبوا بى الى الأقاصى .

الرجل لا يرحم الطريق والعربة والركاب بل يدوس بكل إصرار ورجله صارت مهووسة بالسرعة الرهيبة .

لا وسيلة لعربات السكة الحديد فى هذه الأماكن ، أهلى خلفتهم ورائى ، رفقائى تندروا بغرابتى ، داخلى ينزع الى السكون والأبدية .

دخلت أنقاض المعبد الذى أقاموه للإسكندر الأكبر بالواحات رأيت الفناء يعم كل شئ وما بقيت إلا جدران متهدمة .

فى معبد سيوه قال لى من هناك : هنا ركع وهنا وضعوا البخور حول رأسه وهنا توجوه وأعلنوه الملك الأله . ورأيته يركض عبر الصحارى بجيشه سعياً وراء سراب الألوهية فما أدركه الخلود وأدركه الموت ، هل تعيش هاهنا : قلت نعم

ونظرتى على الوادى الضيق تنطلق الى الوادى الرحيب الذى يشمل

كل هذا إلا تساع ويضمه .

تدرس ها هنا الجيولوجيا ؟!

قلت :نعم

وهل تتناسب طبقات الأرض هنا مع دراستك ؟!

وهل سوف تستطيع أن تتم أبحاثك ؟

وهل ستدرس علم الآثار أيضاً ؟!!

وهل ستبقى طويلاً ؟

وهل ستذكرنا حينما ترجع ؟

أسئلة كثيرة غاصت كلها وذابت فى بحر كبير من الشوق الدفين واللهفة الشديده .

قالوا : إكتشفوا هاهنا أثاراً لقمبيز الملك الفارسى الذى دفنته الصحراء .

وقمبيز دخل قبل الأسكندر هكذا يقول التاريخ .

وبحور الرمال هناك تتراقص فى عز الظهيرة وتسطع فيها الشمس وتبدو كبلورات من خصلة فى محيط شاسع رهيب .

وقمرها الفاتن فى الليل لا أراه كثيراً فقد وصلت أوائل الشهر ،

ولكنى ماض حتى يطلع ويكتمل القرص ، يرقب ما أفعل ويسعى ظله وراء ظلى ، البيت يطل من الوادى على مجموعة من المقابر الرومانية المنحوته فى صخور الجبل وتطل الشرفة على مئذنة لمسجد قديم يخترق أذانها مسامعى ، أتخيل عهد البادية البكر مع المسلمين الأوائل ، وأرى مدنيتى الشقية التى دخلت هذا العالم النائى ، أشعر بوحدة شديدة تكتنفنى وتهيمن على كتبى وأبحاثى .

قالوا لى : أنت عالم جيولوجيا هائم بتاريخ البشر .

والأوراق من أمامى تحولت الى أرقام واحصاءات لا معنى لها والأفيال تعبر الصحراء أمام قمبيز والجنود شاهرو الرماح يمرقون فوق خيولهم والطبول تدق وإذا بالجو ينقلب وتمور الأجواف وتصول تطبق على كل هذا وتقلب كل من على السطح فى الباطن حيث النسيان .

والنجوم هناك تلمع وتبرق تحكى حكايات كثيرة ولكنها حكايات تعتمر بالأسى .

وأقول لنفسى : هل تحكى حكايتى يوماً !

من يدرى ماذا تكون حكايتى ؟!

البيت أعود له كل عصر وأهجع أسمع تسابيح الغروب حتـــى آذان العشاء ،أدير موجات الراديو علها تؤنس وحدتى .

أستوحد مع الليل الطويل السرمدى .

تقول لى النجوم : سوف تكون يوماً ذا شـــأن وتقــول : وربمـــا لا يدرى بأمرك أحد ....

وأنا أنظر الصحراء الموحشة فتنتابنى الكأبه ، هنا أخر بلاد الدنيـــا حيث جاء الأسكندر الأكبر .

قالوا لى : هى الواحات لا يوجـــد غيرهـــا مكـــان غنـــى وجديـــر بالدراسة .

والدراسة مجالها واسع ولن توصلنى لشـــئ فالحلقـــات متواصلـــة ومتتابعة ولا تنتهى ، والتاريخ الطبيعـــى يتواصـــل مـــع التـــاريخ الإنسانى ، وداخلى ظمأ لا يهدأ ، والوحشة تجثـــم علـــى أنفاســـى العطشى وأسى عميق يجتاحنى .

كهنة الأسكندر هناك غارقون فى سباتهم الأبدى يحـــاولون صنـــع التاج الزائف .

الأسكندر لا وجود له ولا وجود لأحلامه .

وقمبيز أندثر وأختفى مع جيشه الكبير ، كـــل هــذا صـــار وهمـــاً وشذرات أفكار عن لا شئ .

من قال أن هناك كانت حياة ذات يوم ؟ !

صرت لا أصدق كل ما قالوه وكل ما سمعت وكل ماقرأت ، أنـــهض عن أوراقى ، أناجى الطبقة الساكنة من الصحراء وأشـــتم روائـــح البيوت المتناثرة هناك وأدخنتها المعبقة للجو فتهدأ قليلاً نزعـــاتى وأتذكر أننى لازلت كائناً بشرياً يـــهيم فـــوق ســطح الأرض ، وأن السحب لا زالت بعيدة عنى وأن فكرى لازال قاصراً ، عاجزاً عـــن فهم العديد من الأشياء المستغلقة فأرتكن الـــى الجــدران وأجلــس مكانى مستسلماً لا حول ولا قوة ، عازفاً عن كل فكرة وعـــن كـــل خاطرة ، أتلمس بعمق مدى الوحشة التى أصابتنى ، أهم الى كتبى أدون بعض ملاحظاتى الجامدة .

رأيت فيما يرى النائم

رأيت فيما يرى النائم أن نوحاً قام وطاف فى سفينته يلوح للناس يقول لهم " هلموا الطوفان آتى " أى طوفان يقصد ؟ ، غرقت الأرض فعلاً منذ آلاف السنين ومات من مات !

- يانوح ، يانوح

سادر لا يعبأ بندائى أو بصراخى ولكنى رأيته هنـــاك يتطـــاير مـــع ردائه من فوق الفلك يغوص فى قلب الزمن .

وأنهض أراه فى كل الوجوه من حولى يبحث عـــن النـــاجين مـــن الطوفان الأتى .

ينزلق ويتدثر برداء فضفاض ، يسير على الرصيف ويتعلق بالترام ويقبع فى الأماكن العامة يلتف من حولة الكبار يهديهم ويناجيهم .

ولكنه يتحاشانى ، يفلت منى دائماً .

لا أستطيع الإمساك به أو بردائه .

ذات مرة حاولت أن أقبض طرف ردائه ولكنه تلاشـــى ، أمســكت الهواء بيدى !

عيونه واسعة ونظراته غامضة تحمل أسرار عهود سحيقة .

الغرقى يرفعون أيديهم من تحت الماء يصرخون ويتوسلون اليه

، أنقذنا وخذنا معك !

وهو سادر لا يلتفت اليهم .

تموج الماء من حولى ليغرقنى وسط أبخرة الأماكن ودخان النواصى كانت تتخلله الصرخات المتوسلة .

والفلك يبتعد فى قلب اليم الثائر .

" عثروا على حطام طائرة سقطت منذ عشر سنوات وجماجم الركاب كما هى ولم تمس فى أماكنها ! "

" قطار سكة حديد خرج من القضبان يدهس ويسحق من بداخله "

" أشخاص مسلحون يقتحمون أحد المعابد الأثرية ويفتحون النار يقتلون المئات"

أين هى الرحمة ؟!

ذهب بها نوح مع فلكه المسحور .

وجاءنى فى الحلم ليمر مرور الكرام .

ويتركنى حائراً ، تائهاً ، أنتظر أن يقوم الطوفان يسحق الكل ويسحقنى .

حينها فقط سوف تتلاشى هذه المنشورات وتختفى كافة العناوين

التى تطالعنى فى كل مكان .
ويعرفون قدرك .
هل تسمعنى ، أنا لا أسمعك فأجواء حلمك كانت غامضة ، مبهمـــة
ومنظر اليم كان غريباً يموج بالسحب .
رأيت ايها الخلق فيما يرى النائم !

فطيمه



الحفل صاخب ، ساحرة اضـــواؤه ، الحســان رائحـــات غاديـــات بفساتينهن القصيرة وضحكاتهن الجذابة ، يشدو مطـــرب شـــجي بأغان صاخبة ، تتمايل بعضهن مع نغماته ، تصعد سيقانهن عاليـــاً فوق المقاعد .

تتمايل خصورهن وتتدافع تنهداتهن مع نغمات المطـــرب ، الســـكر بداخلي بلغ مداه ، لم يتناول جوفي شـــيئاً ولكنـــه الجـــو الخـــلاب الأسر،إحداهن بلغت نشوتها الذروة ، صعدت المسرح ، يا فتاة لـو تأخذين بيدي وتراقصينني مع النغم ، لن أرفض لك طلباً أبداً!

هناك تتلوى ، تذوب فى العشق ذوباً تصرخ كل خلجة فيـــها طربـــاً وسكراً ، يشجعها المغنى على المزيد وهى لا تتأخر ، يكاد يلامـــس وجهها الأرض وهى تنثني ثم تصعده رويدا والجمهور يتصايح .

من بين المقاعد برقت عينان كحيلتان ، منذ أمد بعيد لـــم أرهمـــا ، كانتا تراقبانى طوال الوقت دون أن أدرى .

فطيمة ...... بحثت عن عينيك كثيراً ، لا أجدهمـــا إلا وســـط هـــذا الصخب وبيني وبينك عشرات الحواجز .

الراقصة تتلوى على المسرح مع النغم .

فطيمة ....

حينما كنت تروحين للمدرسة بكتيباتك ما كنت أقربك ولكنى كنت أحوم من حولك طوال الوقت وتسجلك نظراتي فى أعمق الأعماق ، تحفرك فى الداخل من القلب .

فطيمة ....

الراقصة لا تهدأ بجسمها الفائر وشعرها الأسود المنسدل حتى ركبتيها وعيونها السوداوين ، الموسيقى يتراقص معها الجميع ماعدا فطيمة .

جلست تنظرني بعينين كسيرتين .

كلما حاولت ملاطفتك تنصرفين دونما اكتراث وتهتمين بالجميع إلا أنا .

المعبد أمامي تتلوى فيه العاهرات والكهنة يرقبونهن من تحت أقنعتهم المزيفة ، تلعب بهم الشهوة ويعصف بهم التوحش ..

والصنم جاثم يبتسم فى شر .

ياعذارى المعبد راحت عهودالوثنية جميعها واندثرت كل طقوسها .

فطيمة تلعب بالكرة فى الحارة حينما كانت صغيرة ، تذهب للمدرسة وتنبغ ، يخبرها المدرس عن مستقبلها الباهر ويبتسم لها الكثيرون ويلاطفها الجميع .

بينما أقبع فى المدرج المدرسي أتحسر على فطيمة .

فى نهاية العام تفوقت عليك وعلى كل من لاطفوك ولكن لـــم يكـــن هناك أحد ليحتفي بي ، تلاشوا حينما لم تبزغي وتصبحين نجمتـــهم المنشودة .

يا فطيمة أين أنت الآن ؟

بينما تذهبين إلى المدرسة الثانوية فى الصباح الباكر كنت أخطـــو ، أرقب عودك اللـــدن وشـــعرك الهفـــهاف وأنـــت تخـــطرين ، تلعـــبين بقلبي.

فطيمه كنت حبي الأول العنيف الذى ترك جروحاً غائرة لم تندمـــل أبداً رغم مرور سنوات .

أرواح الحسان الراقصات ظمأى للدعر والفجور ، راقصـــات أخـــر يرغبن فى ساحة المعبد وتند منـــهن آهـــات عنيفـــة مســـحورة ، المطرب يقبلها من وجنتيها ويشكرها ، تعود لتجلس من أمامي

بجسمها الفائر ، تحجب عنى عينك يا فطيمة .
يتمايل جسمى ليمسك برمشك قبل أن يغــوص ، اللحــم الســاخن المغطى بالعرق يمتص كل شغفي ، يطغى على الأفكار ، يشوشها .
حينما قالوا : تزوجت   قلت : بمن ؟
قالوا :طبيب شاب
رقدت فى سريري محموماً أبحث عنك فى أحلام الصغر وفتوة الكبر ، رحت فطيمة ......
بحثت عنك طويلا ......
فى دواوين المصــالح الحكومية ومكــاتب الخــدمة العامــة ، فى شوارع المدينة وفى قلب عرباتها ، كأنما كنت تفرين بعيــداً عــن طريقي .
الصخب يهدأ والحسان الراقصات قبعن يتطلعن للمزيد .
ولكنك فطيمة لم تهدئى فى داخلي أبداً .
كنت تطلبين المزيد من الحب والمشاعر دون أن تدرى وما بخلــت بهما أبداً ، لكنى عجزت عن الاقتراب منك وعجز لساني عن النطق بهذه المشاعر ولم تعرفي بأمري .

ليتكِ عرفت ، ربما ما كنت تزوجت من ذلك الطبيب وربما التفتــت

عيناك نحوي فى إحدى هذه المرات التى كنت أقابلك فيها .

أشعر أنك كنت تسمعين نبض قلبى المرتفع حينما أمر بجـــوارك ،

هل سمعته ؟

نظراتك الحنون وشفاهك الباسمة ووجهك المشرق الفائر بالأنوثـــة

كلهن جميعاً قالوا أنك كنت تعرفين .

هل عرفت بأمري فطيمة ؟

إكتويت كثيراً بحبك وتلونت بالعذاب روحى ، ليتك مسست بأصابعك

فوق هذه الجروح لشفيت جميعها ولبرأت من كل الأحـــزان التــى

عرفتها .

ليتك فطيمة . ما يدريني بالذي كان قد يحدث .

تغيرت كثيراً عن ذي قبل !

بينما اللحن الجديد يبدأ تلاشت عين فطيمة وراحت ، غاصت فـــي

الزحام ، ظللت أبحث عنها طويلاً دون أن أدرى .

إنتهى الحفل الصاخب في صباح يوم جديد ، هل حقاً جلست بيـــن

الصفوف مع الحسان الراقصات ولم ترقص ؟

هل حقاً كنت موجودة في ذلك الحفـــل الكبير وروحك هائمة من فوقه .

لا أظنني قابلتك منذ فارقتك أيام الدراسة !

ولكنني قد أقابلك كثيراً ربما فى إحدى هذه الحفلات مــــرة أخـــرى ولكنك أبداً لن تكوني مع راقصات المعبد مثلما لـــن أكـــون فـــي صفوف أولئك الكهنة .

أجلست أمى على السرير ، دعت لى فى سـريرتها ، لـم أسـمع الدعاء ولكن شفتيها تحركتا ببطء ونظرات صامته شاكره غلفتنـى بها ، رأيتها صبية ممتلئة بالصحة وفائرة بالشـباب وأنـا أعلـق بذيلها تحنو بى وتأخذنى معها فى كل مكان .

سمعتها فى الطفولة تدعو لى أن أكبر وأصير رجـلاً قويـاً حتـى أعوضها عن ماذاقته من حرمان وفقر وعوز وفى الكبر ذهب عـوز المال وجاء عوز الصحة والعافية .

رأيتها شابة تضحك ملء ثغرها النضيد حين ترانى وتسعى جـاهدة لتلبى طلباتى ولو على حساب نفسها .

عاشت معنا أنا وأخوتى تلاطم بنا الحياة والحيـاة تلاطمـها بـلا رحمة .

تصحو بالليل لتوقظ أخوتى يستذكرون ويسهرون وهى تنام خفيفـاً والدار تملؤها علينا حياة وحركة ، تبكى أوقاتاً كثيره وتدعـو الله أن لا ينساها فى أوقات الضيق وماكنت أستطيع لها عوناً ، كنـت صغيراً لا حول لى ولا قوة مثل بقية أخوتى .

رأيتها تثابر علينا بلا كلل أو ملل ونحن نكبر ونصير شباباً

موفورى الصحة والعافية وهى تتضاءل وتضمــــر وتذبــل جــذوة شبابها وبركان صحتها ينضب ونظرات الأمل تتلاشى ، كنت أذوب فيها حباً وما أستطعت أن أوقف الزمن ، يأخذها منى ومنا جميعـــاً وأنظرها ممددة على السرير تنظرلى بعطف وحنان فيهتصرنى ألـــم عميق وشعور بالقهر يتملكنى .

نعيق الغربان

نعقت الغربان حول قمة الجبل ، بدا له نواح ذلك النعيق الذى تطلقه ، كانت السماء صحواً وجو العضارى يخيم على المكان ، أرتفع صوت الصول بتمام الخدمة ، بلغ أنه قائم بها أواخر الليل ، من يرى الوادى والجبال حين يهبط الظلام يدرك جسامه المهمة .
جاء العشاء ، جو الخيمة مظلم ، مستكين ، وبالخارج سناء القمر جلى وواضح .
فوهة بندقية تطل أحياناً من فتحة الخيمة يبغى صاحبها شربة ماء أو رغيف جراية جافاً يقضمه .
ذهبوا الى قاعة الفيديو يشاهدون فيلماً أو فيلمين ، يشعر بوطأة المكان رغم حاجته الشديدة للنوم ، القائمون بالخدمة بالخارج يسمع أصواتهم .

ـ مين هناك !!

ـ حيكون مين يا عبد الخالق ، أخوك حمدى .

أفتكرناك نمت .

ـ أنام إزاى ودوشتكم مصدعانى .

أرتفعت قهقهة زميله .

ـ بطلوا أكل جراية وأنا أنام .

أمام الخيمة قبعوا ، ترامى لسمعه نواحها عبر السماء المظلمـــة ، إقشعر بدنه ، نجم ساهر أزداد لمعانه فى عينيه ....

ـ هل سمعتم ؟

ـ ماذا ؟

ـ هذا النواح !

حدقت وجوههم دهشة قالوا :

ـ فاضل لنا ساعتين ، إبقى إسمع أنت براحتك .

لم يسمعوا فعلاً ! قال لنفسه ، يوقن أن هناك شيئاً ماوراء هـــذا النعيق ، قاموا يواصلون السير والعبور إلى بوابات المخازن التـــى تقوم عليها الحراسة .

الوحدة تطبق على صدره ، ذهبوا عنه تؤنســـهم بنادقـــهم الآليـــة ويحرسهم سلاحهم الأبيض .

دلف الى باب الخيمة وغرق فى ظلام دامس ، كان هناك جالسـاً ! ، شيئاً ما أحس به ، لم يره ولكنه أدركه ، وقفت شعيرات رأسه

وقرأ بعض التعاويذ ، تمدد ، رفع صوته ، ليستعيد رباطة جأشه ، إبتعدت أقدامهم وأصواتهم ، ليتهم كانوا قريبين !!

يتوغل فى الجبل تجاه الوادى المطموسة به جثثهم ، لم يـر شـيئاً واضحاً ولكن ! مؤشر الراديو بارد ، ليته ذهب الى صالة الفيديو! كثيراً ما يحس به حينما يكون فى الخلاء ، ربما شبح أحد الجنود القتلى .

وراء التبة جبانة إسرائيلية .

مايدريه ربما شبح أحدهم ! .

لم يره ولكن يحس به ، يتحرك فى كل مكان حتى عندما دخل الخيمة أدركه ولكنه لم يره .

نعيق الغربان يطرد النوم ، يشق صمت الليل وهدأة السكون ، ربما لم يسمعوه حقاً وسمعه وحده ، أتى الصدى من داخله ! ضجة هناك أتية من الخارج ، عادوا من صالة الفيديو ، قطعوا الوادى صحبة ومكث يصارع طوفان الخلاء .

نهض من الفراش ، أزاح غطاء الخيمة ، السكون يعم كل شئ ، الزملاء لا أثرلهم ، رفاق الخدمة إبتعدوا ، توغلوا وسط الوادى ،

ربما يظهر الأن ، يشعر أنه هناك كامن فى مكان ما يرقبه .

حينما يأتى سوف يرجمه وربما يسبه .

ملعونه كل مشاعر الرعب التى أجتاحته ، هو كائن مادى ، حينما يفنى جسده ويذوب وجوده يصبح كائناً روحانياً ، لا ينتمى الى هذه الحياة ولا حق له فى مطاردة أصحابها ، لن يدخل الخيمة أبداً وسيظل مسهداً خارجها فى إنتظاره .

أمسكت يداه بصخرة صغيرة وطوح بها نحو قمة الجبل ، نحو نعيق الغربان ، تلتها ضربات أخرى وظلت الحجارة تتساقط تبعث ببعض الضجيج المكتوم ، أعجبته اللعبة وذكرته بزملائه ، هم الأن هلعون كالحمقى .

يداه كلتا وأصوات خطواتهم تقترب ، تساءل هل فعل ذلك لأنه رغب فى طرده أم رغبة فى إستدعاء زملائه ، عاد ضجيجهم يقترب.

جاءوا متلهفين ، قالوا : هل سمعت شيئاً .

ـ لا

ـ ولكن كانت هناك أصوات بالتأكيد .

- لم اسمع شيئاً !

دخل الى الخيمة ، وقف ينظر الى وجوههم فـــى ضـــوء القمـــر ، كانوا ذاهلين ، خائفين بينما يصارع ليكتـــم ضحكاتـــه المجنونـــه الغريبة قال لنفسه : هاهم واجمون .

حينما إنبعث ضجيجهم فى الخارج إنبعثت أجـــواء الطمأنينـــة فـــى الداخل .

وراحت عينه فى سبات طويل .

راحت أيديهم توقظه ، كان جاثماً فوق أنفاســـه ، اللســـان متلعثـــم والجسد شبه مغلول ، لم يقهر مركز الإرادة رغم كل ما فعل ، أنـــا أريد .... !

حينما إنتفض ناهضاً كانوا يقولون : مالك

قال : لا شئ .

مضى إلى الخارج فى إستسلام .

قبل أن يفيق كان زميله يسرد على مسامعه أحداث الفيلـــم الـــذى شاهدوه بصالة الفيديو .

لم يشاهد قمة الجبل الضخمة فى قلب الظلمة ، البقعة التى كان

يرجمها بالأمس أو منذ عدة ساعات لا أثر لأى شبح فيها .

لقد كان داخله !

أو تسرب الى الخيمة حينما هجع ونام ، دخل فى أذنيـــه ثــم الـــى داخل قلبه وتسرب مع نبضه ولكنه لم يسيطر عليه ، سوف يقـــهره ويجعله يروح الى حيث أتى ، يسرد زميله أحداثاً غائمة ، تأكد أنـــه أغلق إستحكامات السترة ، البرد الثقيل تشعر به أنفه ويرتعش منه بدنه ولكنه لن يأتى مرة أخرى !!

وقفت الإرادة صلبة إزاءه

حينما قلب بيده الخوذات المنكفأه فوق القبـــور لمـــح نجمـــة داود ترتسم على طلائها الباهت .

تملكه الإنقباض ، لازال يمسك بأثار ذلك الإنقباض وتلك القشعريرة حينما إكتشف المكان ذات يوم .

مامضى عليهم فى المنطقة شهران وهاهو نعيـــق الغربـــان يثـــير الوحشة بداخله .

لماذا تناوحت الغربان ليلة الأمس ؟ ، حامت بظلالها السوداء فـــوق التبة العالية وتطوحت هناك نحو الوادى ، هل تنهش فى الأجساد

الهالكة منذ أمد بعيد وترتع فى خضب دمائها اليابس ؟ أم تقف فوق الشواهد وتطل على عهودإنتصر فيها الموت وتخللها الفناء ؟

أخذت أقدامهم تروح ذهاباً وإياباً تقطع الممرات والمسافات ، شعر بمزيج صاخب من القوة يغمره مع الساعات الأولى للنهار ، ضخته العروق النابضة بالحياة ، خرج من مزيج عقله ، كان كل شئ جلياً واضحاً ، التباب الشاهقة والصخور المتناثرة فى كل مكان ، الأرض الصلبة التى يسير فوقها وخيمة زملائه القابعة بثبات وإصرار ، صوب نظره نحو قمة الجبل ، ما كان للغربان من أثر أو لنعيقها من وجود .

اعتراف

هذه المرأة ذات الوجة المســـتدير والمكيـــاج الصـــارخ والأرداف الممتلئة ، لم تبلغ الثلاثين بعد ، ولكنى بلغت معها فى علاقتنا كـــل الثلاثين عاماً التى عاشتها .

لا اظنها قد إرتوت من كل ما أفعل ، تطلب المزيد دائماً ، تلتصـــق بى حين أحتضنها ولا تتركنى إلا حينما تبلغ مأربها وتشعر بالشبع. ولكنه شبع مؤقت لا يلبث أن يتبدد ويحل محلــــه جـــوع يصيبنـــى بالسأم .

تطلبنى فى التليفون وتقول : أحتاجك

هذا كل ما تقوله فأذهب ، أستلقى فوق الفـــراش أنتظـــر جســـدها الريان يقبل بأعوامه الثلاثين موفور الشباب كامل الصحة .

يقولون : إكتمال النضج فى المرأة عند الثلاثين .

ينتابنى إحساس أحياناً بالقرف والإزدراء لما نفعل !

رغم رائحة البخور التى تعبق أجواء البيت قبل حضـــورى وعبـــق عطور رخيصة قوية تضمخ به لحمها الأبيض الطرى ، رغـــم كـــل هذا ينتابنى إحساس غالب الوقت أنى رخيص .

أذهب فقط لأضاجعها ، وحين أروح عنها يتلاشى وجودى

وتأثيرى عليها مثلما تتبدد سحب الدخان التى تغرق فيها البيت .
ذلك البساط الذى أرتمت لى ذات مرة فوقه ونادتنى
بذراعيها:تعال .
ذلك البساط يشهد أنى أقبلت عليها وبى كـــامل إشـــتهاء لجســـدها المكتنز الريان المستسلم لى أفعل ما أريد .
هى دقائق وتفاصيل أعترف بها أيها الأب فلا تمل سماعها ، أفســح لى كل مافى صدرك من صبر حتى أفضى لك كـــل مـــا بنفســـى ، تريدنى أن أكون صادقاً ، أسمعك تقولها ، عيونك السوداء الثاقبـــة ولحيتك الكثه ورداؤك المستفيض ، كلها تهتف بى : كن صادقاً !
أريد أن أعترف حقاً وأزيح عن صدرى بعض ما يحمل .
الصليب القابع على صدرك يحميك ولكنه لم يحمنى من أن أنجـــرف وألهث وراءها حتى أمتلكت كل جسدها ، لقد فعلت كل مـــا أقـــول ويجب أن أقوله وإلا فما فائدة الإعتراف !!
أراك تزيح يديك متململاً .
قلت لها : أحب أمى .
قالت : أنا أمك .

وحين قلت لها : أحب أخوتى .
قالت : أنا أخوتك وأعمامك وأخوالك .
ولكنى قلت : وأولادى .
قالت : هم أولادى .
عبثت معى بإحمرار شفتيها وبكحل عينيها وبطراوة جسدها فحركت كل الرجولة وحررت كل الفجور !
ليس فجورى يا أبانا بل فجورها !!
حين يتحرك الجسد فى جوارها يكاد يتحرك الضمير ولكنى أسكته بلمس أثدائها أو بهمس من شفتيها الفائرة .
إمراة فى الثلاثين ، ماذا يفعل رجل مثلى معها ؟
هل يتركها دون أن يقربها ؟ دون أن يفعل معها ما يفعل ؟
أرادت ذلك بكامل إرادتها ، وقبلته بكامل عنفوانها وإستشعرته من كل خلجاتها حتى صار سلوكى طقساً أمارسه ولا أستطيع الرجوع عنه .
أسمعك تقول : هى الرذيلة بعينها .
وأنا أهتف بك أن ترحمنى ولا تنطق بها .

فهذه الرذيلة التى تتكلم عنها إستمتعت بها و إستمرأت لذتها حتى غرقت فيها .

لا يهم أن تكون الرذيلة هى كل ما فعلت أو هى دنس أخلاقى أصيبت به روحى .

ياسيدى أجراس الرب لم تنقذنى منها رغم كل ما فعلت لأتجنبها .

وفى النهاية وقعت ولاأعرف كيف الخلاص .

أولادها لا أستطيع الفرار منهم ، وجوههم تطاردنى ، تلاحقنى بالإتهامات ، أنت إغتصبت أمنا !!

ولكنى لم أغتصب أمهم كما يتوهمون بل هى قدمت نفسها لى طائعة مختارة ..... حقاً هى فعلت ذلك .

ولكنهم لا يعلمون يا أبانا .

ورغم ذلك فحين أواقعها فوق بلاط البيت أسمع صراخهم من فوقى ومن حولى يطاردنى كلعنة تصطخب بها أذنى وهى لا تدرى مابى ولكنى أختزن بداخلى ولا أبدى لها سوى الرغبة الجامحة .

هل شعرت يوماً بطعم الكافيار ؟

إنه حقاً لذيذ تشعر بالتفرد والغرابة وأنت تتناوله !

هكذا هى ، أشعر بالتفرد وأنا أتناولها ، ولكنها تنزل بى غالبا الـــى درك سفلى أهتاج منه وأنفر من رائحته الكريهة .

أجل أيها الأب إنى الأن أشتم رائحة نفسى كريهـــة ، لا أطيقــها ، أشتمها فى الماء الذى أقذفه عفناً منفراً يثير التقزز !

أسمعك تقول : هو ماء الحياة .

ولكنه لم يكن أبداً بالنسبة لى ماء الحياة ، بل صار مصدراً للرغبـة الملحة فى التطهر !!

حين أهم بالابتعاد ، تلاحقنى حتى أرضخ وأعود ولكنى غــير راض أرغب فى التخلص من كل ذلك ، أريد قهر الرغبة والقضاء علـــى الشهوة . أريد التطهر والقضاء على كل أثارها التى صارت تثـــير تقززاً شديداً .

هل هى جميلة ؟ : أسمعك تقولها !

هى رائعة الجمال ، لا مقاومة لسحرها .

" إستعذ من الشيطان بالرب " .

أسمعك تردد ذلك النداء كثيراً للمصلين ، وأنا أريد أن أفعل .

هى ليست شيطانا بل هى إمرأة فاتنة .

ولكنى ماعدت أحتمل ، شيئ ما بداخلى يوقن أن شراً سيقع وأريـد أن أتجنبه لذلك جئت .

هل تستطيع أن تطهرنى وتبعد عنى كل هذا الدنس الذى ســـمعت ؟

هل تستطيع أن تجعل رائحة جسدى طيبة محببة مثلما كانت قبل أن أعرفها ؟

أسمعك تقولها : أستطيع وأقدر .

أنى معك حتى النهاية .

فلتضربنى بصليبك حتى أدمى علنى أكترث .

عنق للزبح

لا أمل ياسلطان الزمان فى أن تخرج مرة أخرى من لياليك الألـــف وتبرق نجمتك شهرزاد فى حكاويها .

قد ولى زمن الأساطير وجاء زمن الغربة .

تلك المدن الرمادية تعيش فى داخلى صورتها الشائهة وتنطلق مــن أبراجها صرخات السحرة والمردة والجان فينخلع قلبى وأوى الـــى بيت قديم متداع .

أنظر السقف ، متأكل ، يتسرب منه الضوء ضعيفاً ، يكشف عـــن نهار مترب تلوث منذ دهر .

الخدم العبيد يحمون سيدهم من كل أذى ويأتون له بالجوارى حتـــى مخدعه وهو يخصيهم حتى يضمن ولاءهم !

ياسلطان الزمان ....

وأدت أحلام الشعوب وحطمت عزائمهم وســـلبت إرادتـــهم بالقـــهر والخوف .

حمائم بيضاء تحط فوق السقوف المتأكله .

أصوات المردة لا زالت تجأر ويصل صداها مريعاً .

الضوء يتبدد والليل يوغل ، جاءت الأقدام تدب ، الدقات فوق

الباب ، القبضات العنيفة تتهاوى فوقه ، تخترقه ....

أنظر فى إستسلام ، يزأرون بوحشية فر حين بالظفر ، طـــاردونى طويلاً ، يهتفون ، من أعماقى تخرج جمله يرددها لسانى لا إراديـــاً " ولى زمن الناجين " .

من فوق أكتافهم ترتعد عنقى تستعد للذبح .

تشرئب وسط الرماد المتراكم فوق البيوت وأعلى الطرقات ، أســـفل الكنائس وأعلى قممها ، خلف الجوامع وفوق قبابها .

فى داخل القصر رموا بى فى جب سحيق ، جـــــدران مـــن صخـــر وحديد صدئ متأكل ، عفونة شديدة وفئران تصرخ فى وحشية .

تشم رائحة اللحم الطازج والدم الحار ، أصرخ من خلف القضبـــان بكل عنف .

" يا حراس جهنم السفلة متى أراكم تحرقون ؟؟ .... "

النار فى صدرى ترتفع وتتصاعد ، تصير بركانا هـــائلا ولكنـــها لا تحرق ولا تزر ، تظل حبيسه فى مكمنها الضعيف .

وبينما يتأكل لحم قدمى تحت أسنان وحشية ، تصرخ نفسى بكـــل قوة .... فداؤك أيها النصر البعيد .

دخان عم شجر

إنطفأت أنوار السينما ، دارت صور الفيلم غامضة ، تتدرج مشاعر الشوق والمتابعة لأحداثه .

البطل يدفع بساعده كل الأشرار بعيدا ويـــهزم كــل مـــن حـــاولوا الإعتداء ، يرتفع شعار الطيب القوى ، تنمو الصورة وتكبر، البطـــل الصامت الذى لا يعرف الإنهزام و يصارع كل الأعداء .

تضئ الإستراحة .

باعة التسالى الرديئة يدورون بها على المقاعد فى إلحاح ، حاملو صناديق المياة الغازيه المتربة يــــدورون فـــى ســـرعة ، زمـــن الأستراحة قصير لا يتعدى العشر دقائق .

عليها يتوقف رزق يومهم كله .

وقف عم شجر ينفث دخان السيجارة ، نحيـــل القامـــة ، بطاقيـــة صوفية لا تفارق رأسه وسيجارة لا تفارق يده وأســـنان أتخمـــها الدخان بالسواد .

دائما يفرض حزمه على باب السينما فى الدخول أما فى الخـــروج فهو لا يملك من أمره شيئا .

يتدافع الجمهور والحشد بلا نظام .

باعة ، صبيان ، عمال ، أصناف عديده غالبها كـــــــادح وكلها محروم .

عم شجر المتعة فى داخله صورة عارية وفخـــذ ريـــان يتحـــرك ، يراقب الموقف بكل حواسه .

مع بداية الفيلم العربى يجلس فىأحد المقاعد ، يراقب الشاشة بكـل شجن ، راقصة تتثنى أفخاذها الريانة وخصرها اللدن عار.

تجف شفتاه وتتوق حواسه الى الملمس الحسى الماجن ، لا يطيــق صبرا ، فى دروة المياه ينهى كل شئ !

على باب السينما يقبع ، يحصى بعض النقود القليلة ، يتبلع بقطعـة من قرص حتى يغيب قليلا عن الوعى .

بينما يتدافع الجمهور فى الخروج بلا نظام كان يجلس ثابتة نظراته فى لا شئ .

أطياف تتحرك من حوله ومن أمامه وتنسهزم مثلما إنـــهزم كـل الأشرارفى الفيلم .

يتركونه جميعا وحيدا ، بعض المضايقات من صبية تخلفوا ، كلـــها تتبدد مع تقدم هزيع الليل وبإغلاق أبواب السينما . على صندل

خشبى صغير مدد فرشته فى الظلام وإستقبل رائحة العفونـــــه بــلا وعى ، رأسه لا تزال سابحة .

أثار من يومه تطفو فوق ذاكرته ، يتململ ضيقا ، يبعدهـــا جــاهدا عن شاشة عينيه .

يعتلى صهوة أسود أليفـــة وظـــهورأفيال ضخمـــة وهـــو يمســك بالسيجارة فى يده ويتغنى بألحان قديمة وســـط أغصـــان وارفــة وأشجار كثيفة ، حين يتوه الحلم وتضيع معالمه .

تظلم الصورة وتغيم الأجواء وتزوره سحابة مـــن كآبـــة كثيفـــة ، يتأوه فى صمت .

بجواره تتسلل فئران ضخمه تتغذى على بقايا عشـــائه الـــذى لـــم يتناوله ، تتشمم رائحة رجليه التى لم يخلع عنهما الحذاء .

فى الصباح حين تسطع النوافذ بالضوء المتســـلل رغــم إغلاقـــها يكتشف أن اليوم الجديد قد حل ،

وأن عليه تنظيف المكان قبل أن يبدأ يكتظ بالحركة .

تتنسم أجفانه بقايا نعاس لذيذ . يختمر ذهنه بمعنى اليوم الجديد .

تتوالى أنفاسه رتيبة بلا توان .

يشعر بالضعف يجنح بجسمه يوماً بعد يوم .

يمضى إلى صالة السينما يزيل قاذورات الأمس ، يجعلـــــها نظيفـــة
لتستقبل قاذورات اليوم .

أنفاسه الجديدة تشتاق الى دخان .

يجلس يتناول واحدة قبل أن يفعل أى شئ .

الصورة

جنود نابليون حاملون سلاحهم ، يلتحمون مع شرذمه يائسة مـــن المماليك ، يبرز مملوك شيخ ، يختال بجـــواده ، تـــزدان رأســـه بياقوته ويلمع سلاحه بما طعم من غال ورخيص .

يصرعه الجنود المتعطشون للنصر والراحة فى أرجاء القاهرة .

يردونه برصاصة أعلى فخذه ، تخترقه الى جواده ، يتهاوى الجواد ، يحاول النهوض بوهن لا يقاوم ، يبرك فى مكانه شاهراً ســيفه ، صوبوا هذه المره نحو عينيه ، حين طاشت الرصاصات نحو رأسه تفجرت وتناثرت دماؤها .

إنتهبوا كل شئ منه وتركوه رمة تشرف على التحلل .

راح يتأمل أجزاء اللوحة وهو يعجب ، يدقق فى شـخوصهاويتخيل أحداثها ولكنه وقف طويلاً أمام وجه ذلك المملوك .

فى تلك الليلة كانت دولة المماليك فى حاضره ويزدحم بها خياله .

ناجى أمه الغائبة لا تتركه للوحدة يتجرعها .

المماليك العتاه إندحروا ، نهبوا وسرقوا وقتلوا ثم راحوا !

تمتم يقول " يا أمى لا أعرف ماذا أفعل أنا الشخص الضعيف الـذى يحاسب نفسه حتى على الأنفاس التى تشهقها "

ليته لا يستطيع أن ينام أبداً !

هل يطيل ذلك أمد حياته ؟

حين راح يزور قبر أخيه ، كانت تلك الأرملة ...

لمحها عدة مرات تنثر بضعة أغصان خضراء فوق أحد القبور .

ليتها تعرف أن المملوك ذو الجواهر و اللؤلؤ والياقوت قد تركوه رمه وغصبوا على روحه بالفراق !

فى الطريق وهو يودع العربات المارقة بعينيه تراءت له تلك الأرملة جميلة رغم حزنها .

بينما ينهب الطريق بعربته شعر فى أغواره بمرارة وجفاء ، لماذا لا يذهب ويقول لها " كفى حزناً فكلنا مهزومون فى المعركة مع الموت " لن تفهم وستتهمه بالتطاول والإستهتار .

تراءت له تزدان بتاج ملكى وتخطو فى أبهاء قصر من القصور الفاخرة وأمراء يلتفون من حولها وهى تخطو فى دلال ورغد .

إرتاح ذهنه الى تلك الصورة الحالمة وشعر بأسارير وجهه المتعبة تنفرد ، عبر بائع برتقال الطريق بسحب عربته الخشبية بساعديه ، يمشى الهوينا .

تخيل البائع وقد صار كهلاً فى غضون أعوام وصحته هذه تتلاشى وتختفى .

ردد لنفسه فى سخرية : لا دوام لأى شئ !

شمس فبراير تسطع رغم برودة الجو ، الشوارع تضج بالحركة ، رغم ذلك لا يرى أى حياة !

يشعر أن دماءه صارت ثلجية ووجهه أصبح جامداً خالياً من أى تعبير .

كاد يهرسها تلك الشابة وهو تمرق من أمامه ، تراءت له الأرملة بعينيها السوداء الغامضة .

إبتسمت له الشابة فى ظفر حين عبرت ، إبتلع سخطه وهو يرى الأصابع تنثر الأغصان الخضراء فوق جدار القبر .

هل يقابلها مرة أخرى ؟

قدماه تقودانه الى المتحف ليقتحم الصورة .

لن يحكى لها عن ذلك المملوك أبداً أوعن ياقوتته العجيبة التى تشرق فى منتصف رأسه .

ولن يخبرها كيف تفجرت أشلاء نافوخه برصاصات الطامعين ،

ولن يقول لها كيف تركوه رمة فى العراء تنهشها الكلاب !
حين يراها ، متى يراها ؟
شتاء الميناء على مرمى البصر .

بـرد محتمل

تصطخب الأكواب من أمامى وحولى وتزدحم النظرات بكل المعـانى وينظر أحدهم الى نرد يحمل بعض الحظ .

خطوط المكان عرضية وطولية وألوانه بنيـة غامقـة وأشـجاره المظللة سامقة وارفة .

الماء يتدفق بسخاء على القابعين حتى يدفعوا حين الأنتهاء .

مائى هناك فى الكوب لا يتماوج ، تخلله ظـل أصـابعى ، حيـن تطوله شفاهى سوف تعرف الطعم العذب والعذاب !

النيران تتلظى فيها الأجسام ، تتهدل الشعور وينبعث الرعب فى العيون .

الماء ينسرب الى بلعومى باردا ، تختفى الصـورة ، تعبـث قطـة ضالة بطرف المنضدة . تحك رأسها فى ساقى .

يحوم ماسح أحذية من حول القدم .

يرقب الحذاء بقلق .

شيئان لا ثالث لهما هما الحياة والموت !

مذياع قديم من خلفى لا ينطق ، جدران باردة تشع رطوبة وتنضـح بالعفونة .

أقبل أيها الساقى .

سوف أمنحك بعض ما فى جيبى .

مضت المركبة الذهبية مع الأميرة النائمة وسط الأحــلام ومضــى عهد الطفولة .

جميع عهود الطفولة بائدة !

راحت حكايات ألف ليلة تدور فى أروقة ذهنى غالب أيامى فــأنتظر بلهفة مصباح علاء الدين وأفكر بشوق فى البساط السحرى ، كله راح !

عجوز يدب بعكازه ، ماذا يفكر فى هذه اللحظة ؟

يقبع فى الركن المقابل ، يتحرك ببطء بصره الضعيف ، يلحظنــى ، لا يلحظنى ، يتساوى الأن فى نظره كل شئ !

تعبث شفاهه بفنجان القهوة البنى ، تلاحقه نظراتى وتمسك بيــده المرتعشة وهى تكاد تسكب الكوب ، أنظر الى الأرض أسفاً ، ألعـن وأسب ! شيئاً ما لن يتغير .

لازال الرجل يراقب بصبر لا ينفد ، يرقب فردة الحذاء اللامعة فــى قدمى بعدم إقتناع .

هل أبدو له أبله حتى أمسح الحذاء اللامع ، قد أبدو له هكذا مـــن يدرى !

تعبر المرأة من هناك الطريق تضـــج بالفتنـــة ، يتـــهدل شـــعرها المصبوغ وتزعق زينتها وتهز أردافها من فوق الكعـــب العـــالى ،

يا لك أيتها النفس !! حتى الموت سوف تظلين تتعذبين .

دماء حاره ينبض بها قلبى وتفور فى عروقى ، ألهبتـــها الأفخـــاذ الريانه والجسم الممتلئ بالشباب .

متى أتحرر من شهواتى وتنفر نفسى من الملذات !

لازال منظر النيران وهى تلتهم الأجسام يبزغ من قلـــب الضبـــاب والأجسام تتلوى وتنثنى كالثعابين .

ولكنها ثعابين هالكة ! حكم عليها بالفناء !! .

قبع الرجل فى أحد الأركان يأساً من حذاء يمسحه ، حـــول نظـــره بعيداً عنى .

مددت يدى بورقة منحته إياها فرفضها وهو يتناولها بلهفـــة ، الأن يدعو لى فى سريرته بكل تأكيد .

وقد أبدو له أحمق غريراً يبعثر نقوده عن اليمين و عن الشمال .

المكان شبه خال ، أنصرف بعض رواده القلائل .
هل أنصرف ؟ ، قد تعبر غادة فائرة أو حسناء بضه وينبعث الشباب ببدنى .
الشارع شبه خال إلا من بعض المارة ومروق قليل من الدراجات والعربات .

سماء مغيمه تطل ، قطرات بدأت تتساقط ، الدنيا ترخ ، حكايات جدتى تبزغ وغناويها عن المطرة ، جدتى متشحة بطرحة سوداء صار لونها رمادياً .
تحكى لى منذ رحلت إلى عالم السبات الدائم .
ياجدتى ما عدت أسمع ، ثقل السمع وضعف البصر .

الشوراع بللتها المياه والكل جاء يمشى فى قلب الرصيف ويمر من أمام المناضد ، مزقوا حرمة المكان ولكنهم بعثوا الروح فيه .
أقبلت ، تتبختر بجسدها الممتلئ .
أندفع ساعدى بعصبية من فوق المنضده ، ماذا أفعل لأكبت هذه الرغبات الفوارة وتلك الشهوات الفانية ؟
شفتاها قرمزية ناضجة ووجهها صابح مستدير وردفاها ريانان .

راحت جدتى وتلاشت حكاويها عن زمان وهى أقبلت تـــهز الأرض من أمامى وتميد بى حتى أتقلب فى أحضانها أنهل من الهوى .

أطبق بالشفاه فوق الشفاه وبالجسد فوق الجسد .

لافائدة ، لا إرتواء ولا شبع .

جائع ، مسعور .

تمضى بأقدامها الثقيلة وجسدها الفائر ، تخلفنى جســماً ، قلقــاً ، حاراً تعصف به الشهوة و ... بهدوئة الراسخ الرغبة .

لافائدة من كل تعب الأمس سوف يكون مصيرى عهداً بائداً !

الأجسام تتلظى فى النيران وشعاب الجحيم الهالكة صارت منظرا لا معنى له .

العذاب فى الدنيا قبل أن يكون فى الآخرة .

الخطوات باردة تستكشف المطر المنقطع . النظرات قلقة ترقب من أين تذهب ، إمتدت اليد فى الجيب تحتمى من برد محتمل .

المرأة .... تلك المرأة !

تلك العجوز يأبى الراقد فى عالم الأموات،لا أعرف كيف جـاءتني؟
، ظهرت لى فجأة بعينين حائرتين لا تستقران على شـئ محـدد ،
تمضي بثياب رثة ثقيلة ، تحتمى بها مـن بـرد غـير موجـود ،
صادرتنى مقلتاها وأغلقت كل سبل النجاة فى وجهي .
حينما عبرتنى نظراتها التائهة من خلف الزجاج ، لم تمد لى يدهـا بالسؤال ولكن .
يا أبى الراقد فى عالم الأموات ... هل تريد الحياة مرة أخرى ؟
أنا لا أريد حتى لا تلاقيني هذه النظرات أبداً .
يا أبي ، أولتني ظهرها وراحت بخطى متعبة ثقيلة تدوس بينمـا أئن !
تشهد السماء أنني تزلزلت و انهد كياني كله ، ليتها مـدت يدهـا بالسؤال ولكنها لم تفعل وراحت فى هدوء تتلفت حولها يائسة .
حين جريت وراءها التفتت وبنظرات ساكنه أخذت من يدى النقود
لم تكن نظرات شاكره يا أبى ولكنها كانت نظرات متعبة ... متعبة وأنا ....
وقفت أنظر إليها تمضى ، تخلفني وسط الضجيج والحركة ساكناً لا

أشعر بأي شئ .
يا أبي لا أدرى من أين ظهرت والى أين تسير ؟ ولكنني خلفتها فى عرض الشارع لتلقى مصيرها .
يا أبى الراقد فى عالم الأموات هل أنت مستريح ؟
لا تأتى أبداً فكم أنا شقي !
أسمعك تقول : سوف أزورك .
سوف أنتظرك بلهفة حقاً .
فكم أنا مشتاق إليك ، منذ فارقتني لم تزرني ، هل أغضبتك أبداً؟
كنت دوماً رفيقاً معي ، هكذا قالوا لي فقد كنت صغيراً للغاية .
الزمن قصير للغاية يا أبى وسوف الحق بك عن قريب .
أقدامها المتشققة العارية وهى تزحف بهما ، ملابسها الثقيلة الممزقة ، بشرتها المتعبة اليابسة ، عيناها التائهتان ، كلها يا أبى في منامي تقض مضجعي .
حين تزورني سوف أحكي لك عنها علك تعرفها فقد تكون إحدى جداتي التي لم أرهن .
ولكنها يا أبى حزينة .... حزينة للغاية .

ولا أملك لها ....

بل أملك ....

ربما يا أبى أجرى ذات يوم نحوها إذا رأيتها .

لكنى واثق أنني لن أرها مثلما لن أراك ، قد تجيئنـــي فـــى عـــالم الأحلام ، هل تأتى ؟

أشتاق إليك كثيراً ، لخلجاتك المتحركة ولوجهك العريض الراســخة نظراته فى ذهني .

حينما تزورني قد تمسح كل شغاف الحزن التـــي مســت قلبـــي .

والمرأة .... تلك المرأة .

سوف أحاول نسيانها ، قد أستطيع .... من يدري ؟

الزمن يطوى كل شئ وسوف يطو يني .

مؤمن بذلك يا أبى كل الإيمان .

إبراهيم صالح

- مواليد مدينة بورسعيد .
- نشرت له العديد من الأعمال فى الصحف والمجلات المصرية.
- صدر له :

- أجواء خريفية " قصص قصيرة " عام ١٩٩٦ .
- فتاة القطار " قصص قصيرة " عام ١٩٩٨ .

الفهرست

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٩ / ٧٧٠٠

I.S.B. 977-19-8877- 8